قل موتوا بغيظكم

10-12-2002

د.وسيم فتح الله

أما إذا أردت الخوض في تفصيل ما يغيظ هؤلاء فإنه لا إله إلا الله محمد رسول الله تدوي في أرجاء الكون، إنه الركوع والسجود، إنه ناشئة الليل، إنه ورتل القرآن ترتيلاً، إنه المؤمنات المحصنات ، إنه حجاب وستر وعفة، إنه سمتٌ إسلامي ظاهر وسلوك إسلامي آسر، إنه صدقةٌ باليمين لا تعلمها الشمال، إنه حلقة علم بعد صلاة الفجر، إنه رحلة من أجل سماع الحديث، إنه عالمٌ رباني لا يخشى في الله لومة لائم، إنه مرابط في سبيل الله تغبر قدماه بتراب الثغر وتنهمر عيناه بدموع الخشية، إنه أمير للمؤمنين يبيع كرسيه بدينه ولا يبيع دينه بكرسيه، إنه أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرَّه، إنه امرأة سوداء من أهل الجنة، إنه عبد أسود أعزه الله بالإسلام، إنه ميزانٌ للناس أساسه التقوى، إنه جليس صالح أطيب من ريح المسك، إنه إماطة الأذى من الطريق، إنه زوج يحتسب لقمة الطعام في في امرأته، إنها مؤمنة عفيفة تحسن التبعل لزوجها، إنها لحظة شهوة جسدية تستحيل عبادة لله وقربة، إنه بسمة في وجه أخ مسلم، ورأفة بأفراد الكون الموحدين، إنه "أحدٌ أحدٌ " رداً على سياط الظلم والكفر، إنه أبو بكر الصديق في وجه أهل الردة، إنه

بقلم د . وسيم فتح الله

لا شك أن مظاهر الخيلاء والكبر ممقوتةٌ مبغوضة في الإسلام اللهم إلا مواضع من الطاعة نبه عليها النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال :".. وإن من الخيلاء ما يبغض الله ومنها ما يحب الله، فأما الخيلاء التي يحب الله فاختيال الرجل نفسه عند القتال، واختياله عند الصدقة، وأما التي يبغض الله فاختياله في البغي والفخر"(رواه أبو داود)، ولا شك أن مناط الفخر والخيلاء المحمود هنا هو الانقياد والتذلل التام للسيد المالك الجبار المتصرف، بحيث يفرح العبد المؤمن بانطراحه على عتبة مولاه وسيده في حين يتنغص عيش العبد الآبق بعيداً عن مولاه ليعيش حياةً ملؤها التخبط والضنك والويل والثبور.

ولما كان المحل الأصلي لهذا الانقياد والتذلل هو القلب الذي ليس لأحد عليه من سلطان سوى مقلب القلوب، كان مُحالاً إن تُنتزع العزةُ من المسلم، وكان عبثاً أي جهد يبذله الآبقون من عبيد الله لكسر شوكة المسلم أو إرغام أنفه، فمهما بذل الآبقون من جهد فإنه يعود عليهم أبداً بمزيد ذلٍ وصغار ، ويعود على من سلك طريق العبودية الشرعية المتممة للعبودية الكونية بمزيد من العزة والسؤدد، كيف لا وقد قال تعالى في هؤلاء الذين لا يرغبون بأنفسهم عن الله تعالى :" ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوٍ نيلاً إلا كُتب لهم به عملٌ صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين"(التوبة 120)، نعم، هكذا فليتحرر مناط العز والافتخار "في سبيل الله" ؛ إن حقيقة هذه العزة هي استجابةٌ فورية كاملة للأمر الشرعي الاختياري بغض النظر عن تبعاته من الأمر الكوني الابتلائي، بل حال العبد المنطرح بين يدي الله فيما يعرض له من آلام وابتلاءات هو من جنس ما وصف الشاعر

مع محبوبه من المخلوقين: إن كان سرَّكمُ ما قال حاسدنا فما لجرحٍ إذا أرضاكمُ ألمُ

وأين حب المخلوق الفاني من محبة العبد المؤمن لربه وسيده ومالكه، قال تعالى:"ومن الناس من يتحذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله" (البقرة -165)، فليأتِ القدر إذاً بما هو آتٍ، وليحكم الله ما يريد، وليفعل بنا ما يشاء طالما لم يحرمنا من الأنس بقربه والفناء لأجله – أعني فناء الجسد – وطالما لم يجعل ذلنا الحقيقي إلا إليه وعزنا الحقيقي إلا به...

إذا تبين هذا فليتبين أيضاً أن هذه الجنة التي نعيشها في مملكة الله عز وجل بعيداً عن حِماه (أي محارمه) قريباً من رضاه هي التي تفتُّ في عضد القوم، وهي التي يريدون أن يزول نعيمها عنا، وهي التي تتحرق قلوبهم لنرتد عنها قال تعالى:"ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق"(البقرة – 109)، إن هؤلاء القوم لا يناجزوننا عن جهلٍ بديننا، ولا يحسدوننا عن جهلٍ بالنعيم الذي نعيش فيه – وما نمضي إليه أفضل إن شاء الله – فمن العبث إذاً أن نخاطبهم خطاب الجهال، ومن العبث أن نداريهم مداراة السفهاء، ومن الغضاضة أن نعطيهم الدنية في ديننا، فإن تساءلت كيف يكون الخطاب إذاً أحلتك على قوله تعالى:" محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركَّعاً سجدَّاً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرعٍ أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يجب الزراع ليغيظ بهم الكفار " (الفتح -29)، إن خطاب هؤلاء القوم إذاً يكون بالثبات على معالم الحق في كل جزئية وفي كل حيثية وعلى كل ثغر حتى نحقق التكامل التطبيقي للمنهج الإسلامي بشقه العلمي الشرعي (الذي أشارت إليه الآية بالركوع والسجود) إرغاماً لأنف الأمة الغضبية وبشقه الحسي الاجتماعي العملي (الذي أشارت إليه الآية بالزرع النامي المشتد)إرغاماً لأنف الأمة الضلالية، وباجتماع هذه المقومات يتحقق عز المؤمن وغيظ الكافر حقيقةً على أرض الواقع كما هي حقيقةٌ في نفس الأمر. أما أن يكون خطاب هؤلاء خطاب الهرولة والمسارعة والمداهنة فهيهات هيهات أن يعود بطائل:"ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ"(آل عمران – 119)، فهل لهؤلاء المناكير من دواء سوى :"قل موتوا بغيظكم"(آل عمران – 119)، هيهات هيهات..

أما إذا أردت الخوض في تفصيل ما يغيظ هؤلاء فإنه لا إله إلا الله محمد رسول الله تدوي في أرجاء الكون، إنه الركوع والسجود، إنه ناشئة الليل، إنه ورتل القرآن ترتيلاً، إنه المؤمنات المحصنات ، إنه حجاب وستر وعفة، إنه سمتٌ إسلامي ظاهر وسلوك إسلامي آسر، إنه صدقةٌ باليمين لا تعلمها الشمال، إنه حلقة علم بعد صلاة الفجر، إنه رحلة من أجل سماع الحديث، إنه عالمٌ رباني لا يخشى في الله لومة لائم، إنه مرابط في سبيل الله تغبر قدماه بتراب الثغر وتنهمر عيناه بدموع الخشية، إنه أمير للمؤمنين يبيع كرسيه بدينه ولا يبيع دينه بكرسيه، إنه أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرَّه، إنه امرأة سوداء من أهل الجنة، إنه عبد أسود أعزه الله بالإسلام، إنه ميزانٌ للناس أساسه التقوى، إنه جليس صالح أطيب من ريح المسك، إنه إماطة الأذى من الطريق، إنه زوج يحتسب لقمة

الطعام في في امرأته، إنها مؤمنة عفيفة تحسن التبعل لزوجها، إنها لحظة شهوة جسدية تستحيل عبادة لله وقربة، إنه بسمة في وجه أخ مسلم، ورأفة بأفراد الكون الموحدين، إنه "أحدٌ أحدٌ " رداً على سياط الظلم والكفر، إنه أبو بكر الصديق في وجه أهل الردة، إنه سعد بن معاذ في وجه رموز الغدر والخيانة، إنه الإمام أحمد في وجه سياط المحنة، إنه صلاح الدين في وجه صليبية شرسة حقود، إنه سيف الدين قطز في وجه ياسق التتار وكفرهم، إنه السلطان عبد الحميد في وجه عروض وصفقات هرتزل الخيانية، إنه محمد الدرة الأول والثاني والثالث حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً...

هكذا إذاً فلنقرأها بقلوب مؤمنة وجباهٍ أبية وأعين خاشعة وألسنة حامدة شاكرة :" فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم"(محمد - 35)، أما هم فنقول لهم :" قل موتوا بغيظكم "...

للعودة للأعلى